# ولم يقاطعنى أحد

كنت هناك، مع الداخلين أردد، طوعا ما ينشدون، أحمل بين ضلوعى الثبات، أهتف، اصرخ بما يصم ويصفع، الأصوات تعلو حينا ثم تخبو، لم أتعود طيلة الايام الماضية على الحشود رغم الأكل والإقامة لأيام وسط دوائر الكتل البشرية، فى البداية كان الأمر لا يعدو أسماع الناس والحكومة لمطالب الشعب أقصد عن نفسى مطالبى أنا ووقتها كنت متأكدا إنها مطالبي، فرصة للعمل الأمن، تعيين، حكومات وراء أخرى لم تعين أحدا منذ أكثر من خمسة عشر عاما، كلنا بعقود آجلة تفسخ بانتهاء المدة التى لا تتجاوز العام لأكتب بعدها عقدا جديدا فى المدرسة التى أعمل بها، أدور على الإدارات المختلفة لتجديد انتمائى كمدرس، مدير المدرسة، الإدارات التعليمية، صعب أن أبدأ من جديد كل مرة، تصطدم بالروتين بالوجوه المكفهرة ذاتها، القلق أن يحدث شيء يضيع العقد، إنكم تحتاجوننا بشدة لم إذن كل هذه العقود، لم كل هذه التعقيدات والسدود حتى ذلك الراتب الضئيل الذى لا يسد المواصلات تعطوننا إياه بوضاعة، كل تلك الألاعيب. كادر المعلمين امتحان، عقد مدرس متميز. فى ماذا أليس الحصول على شهادة جامعية بالقدر الكافي، ألا يكفى خبرات السنين المتصلة المتولية. لا. حيث تنقطع

المدة بالعقد المحدد، أُمال احنا بنخليكم تعملوا عقد كل سنة ليه، حتى لا تحتسب الخبرة الكافية للتعيين تحايل على القوانين، لماذا إذن خرج آباؤنا فى ثورة اتنين وخمسين هكذا إذن، أخرج وسط الحشود، أطالبكم بالحل. أطالبكم باستجابة تحسين سبل الاعاشة، إزالة الحواجز والإعاقة، نعم أنتم من تسبب فى الوعكة، نحن نطالب بإسقاطكم وستسقطون وأظل أحلم أن تعاقبوا، أن يعاقبكم أحد ما، فى ظلام السجون تنتظرون. أفيق على أصوات فتيات يصرخن بحناجر مشروخة (الشعب يريد إسقاط النظام) أتجاوب مع الصيحات، تشتعل الأجواء تتردد صيحات متشابهة المضمون، طاقات قررت الهتاف هذا هو العمل المفيد الآن، لنا مطالب، يصعد فوق الأكتاف، يقول كلاما لم أتبين حقا ما مقدار وضوحه عن وزراء ومسئولين اسماء كانت تنطق فى الماضى بالتبجيل. أما الآن فهم الأشرار بلا أقدار. بل أقذار، يؤيده ثالث وخامس ويطالب بتوجه الحشود للوقوف أمام مجلس الشعب، بسرعة تناقلت الأفواه المضغة وسال لعاب الريق وطار الرأى حتى أمسك بتلابيب أطراف الميدان، تتزايد كتل الالتحامات من يقبع خلف جدران المجلس الآن، صاح ثائر من بين كتل اللحم الآدمي: يوجد بعض النواب، والداخلية لديها مركز قيادة كامل بالداخل، يؤيده آخر، من يملك صد الزحف، يتدافعون حتى يخترقوا الحاجز، تتكسر أمواج الصف، يتضعضع أمام كراديس الأمن الرابض على فوهة مدخل الشارع، الصد يخلف فجوة بين الأمن وبين الناس، يتطوع ويلقى

بنفسه وحده وسط كتل الأمن المركزى ذوى الملابس السوداء والدروع والخوذات الواقية وعصى الشوم العملاقة، ألا تبا لشجاعته تلك وهو أعزل يقفز ليناطح غولا فى حجم المارد، يصدونه بقسوة، بلطمة درع شفاف تلوث للتو بلطخة دمه، يتلقى وهو طريح الأرض خبطات عدة على الرأس والصدر وتكسر ساقه يخرج دم حار متدفق من ثغرات بين اللحم، كنت الأقرب إليه ونافورة الدم تنبثق من ثنايا ساقه المصابة وحوش تتصارع للاجهاز عليه، أتلقى الضربات وأنا انتشله من بين الأنياب أزحف به بعيدا عدة خطوات ويغطى انسحابنا فتيات شدت إحداهن فخذه بعصابة وطرحة رأسها حتى توقف نزيفه، بينما انساح شعرها من خلف البندانة وتلوثت أطرافه، اخترق الناس، يتصارع أنداد عدة قد فتح الدم سبيلا لهم فى دشم الصخر، ماذا أفعل أسحبه للخلف، يصرخ بهتافات الألم المبرح من كثرة الأيدى التى تتلقفه، أصيح عبثا فى الجموع: أوقفوا عبثكم به النزيف لم يتوقف بعد الاصوات تضيع فى هرج الموقف وهتافات اللعنات وشتائم الغاضبين والتصادم المميت، ماذا نفعل. ملقى على الارض وسط دائرة من أشخاص لم أعرفهم بعد، قد تدهسه الأقدام الثائرة، والحل. نرفعه عاليا، معنا مصاب، فلنتوجه به إلى مكان آمن صدعوا للأمر، نخترق صفوف الناس، إلى الشط، وجهتنا إحد إطراف الميدان، نتقدم بالكاد وبالدفع وبالعودة قسرا إحيانا للخلف، ينضم إلينا مشيعون جدد، يرفعونه معنا لأعلى ويتناوبون تداوله، إحدهم تطوع للسير فى

المقدمة يفسح الطريق كى ما نمر، أمواج البحر تتلاطم وأنا أسحبهم ضد التيار، جاء أوان الثورة، تقليد يصحب عطش الإنسان، جاء أوان المد غضبة مجروح، سورت مذبوح جاءت ثورة، ومن يملك شعبا يملك طوفان ارض تتطهر شعب يتحضر بالعصيان. لاتقف هكذا دعنا نمضي. إنه مصاب لم يمت بعد. إذن الأسهل أن تأتوا معنا، مجلس الشعب على بعد خطوات وسنقتحم الأسوار والأبواب الغلقا، نريد أن نرى نواب التزوير غضب الشعب عليهم، إنه مصاب بشدة، هاتوه معنا واتركوه بدمه الذى يغطيه فهو هكذا يثير الجماهير أكثر، كنت أحمله وظهرى لتلك الجموع الثائرة، لم أعرف من قال ذلك، من ذلك الذى يريد أن يثور ويمتطى جثمان ثائر مصاب، بعنف هزنى الموقف، من قال هذه الوضاعة. صحت بكل الغضب، بكل قلة الأدب، كان بعض من يحملونه معى قد أرخوا قبضاتهم الممسكة به وكأنما راقتهم الفكرة الدموية، كيف تفكرون فى ذلك، صدمتهم الشخرة الطويلة المدوية فى تلك الأوجة الحانقة، قلت بعدها بغلظة: إنه ثائر مصاب وحالته خطيرة، تراصت صفوفهم أمامى بعناد، بلا ثغرة منفذة واحدة، وأتانى صوت جاف من الصفوف الخلفية: يا أستاذ الأمن هو اللى عمل كده فيه سيب الناس تشوفه بحالته دي، الشعب يريد أن يشهد على طغيان الأمن، صاح آخر بغوغائية: أيوه حيشهد معانا اقتحام مجلس الشعب وبعدين نوديه يتعالج، كانت الأمور قد بدأت تتضح فى ذهنى بغتة، المصاب أدركته إغماءة ألم لا يملك معها من مصيره شيئا، مجرد

جسد ينزف محمولا على الأعناق وبين يدى الآن نجاته أو وفاته، أما الجماعة الثورية التى أمامي. سيطرت عليها نزعات وحشية محمومة أثارها الدم والعنف حتى باتت بعيدة عن كل عقل ومنطق ولن يضيرها أن تدهس من يعترض سبيلها أو قد تظن بى إنى لست منهم، القلة التى معى لن تصمد لو فرضت إيمانها بإسعاف المصاب حالا بعيدا عن استغلالها لحالته، صحت فى يأس واسترحام: لا. إنه أخى ولن أتركه أبدا. افتحوا الطريق حالا. أنا أحملكم مسئولية موته، تقدم أحدهم بتحد واضح وحاول انتزاع قميصه من يدى قائلا: سنأخذه غصبا عنك إنك لن تفرض رأيك، أفلت يده بصعوبة وباليد الأخرى تشبثت بالجسد الذى أضحى نصفه ملقى على الأرض بعد أن تخلى الرفاق الثائرون عن حمله، للحظات صار كلانا ينظر وينتظر للآخر هفوة صدام، التحدى ظاهر فى عيوننا ومرسوم على الأوجه غل وغضب جامح، امتدت أيدى أخرى وتحفزت الاتصل إلينا فى إصرار وحزم حتى الرفاق الثائرون فى فريقى يقفون على الحياد الإيجابى فهم لايزالون يحيطون بى إصرارى منعهم من إظهار موقف محدد مع أو ضد، حتى اننى تحيرت موقفهم، ثم صاح الشاب الذى كان فى مقدمة ركبنا لإفساح الطريق: أتركوه يأخذ أخاه. وانتهزتها فرصة لا يجب أن تضيع وزحفت بسرعة وعصبية خارجا من الحصار أضم ظهره لصدرى واسحب بكل عزم لدى تاركا الأمواج البشرية المتلاطمة تحرف من مساراتى وتلقى بنا إلى حيث اللقت. وبحزاء السور الحديدى لأحد الشوارع الرئيسية التى تصب فى التحرير أقمته على

الحديد مستندا ووقفت التقط انفاسى المتقطعة كانت الحشود قد اخذت فى كنس كل الحواجز الامنية من كل الجبهات وتمترس الأمن عند البوابة الرئيسية فى القصر العينى والشيخ ريحان وبدأت فيضانات الصفوف فى التقدم بسرعة مخيفة لا يوقفها شيء من غاز أو ماء أو رصاص والتحم الطرفان من جديد، احتمى البعض بالمصفحات التى باتت خالية تماما من الجنود، كانت الغربان تحلق فوق مشهد التطاحن وكأنها تتوقع بالغريزة مذبحة وأكداسا من الجثث، وقتها لم انتظر لتتبع باقى المشهد الحزين والثائرون يزيحون بقايا العربات من طريقهم، وقد استبد بهم الغضب والغليان من القوات التى حالت بينهم وبين دخول مبنى البرلمان، تسلقت السور الحديدى إلى الرصيف وسحبته إلى أبواب أحد المحال المغلقة وأخذت فى طلب المساعدة على حذر من المارين حولى حتى استجاب لى نفر منهم وحملناه على ذات اللواح لدسرة قديمة إلى مدخل احدى العمارات، فى بئر السلم تركته مع إحدهم وهو ينازع الألم وتسلقت السلالم لأقرع أبواب الشقق عل أحدا يغيثنى بماء وقطن، عدت بعدها وقد امتلأت يدى بمواد بدائية للإسعاف ومحام شاب تطوع لينقله للمكتب الذى أصبح سكنا مؤقتا له بعد الثورة، كانت أعمدة من دخان أسود ـ مصدرها مصفحة مشطورة لأجزاء آخذه فى التصاعد تحت كوبرى ميدان (الفريق عبدالمنعم رياض) الذى يقف تمثاله شامخا وسطه لا أدرى لم ذكرنى المشهد بمعركة استشهاده أهى الظروف تستدعى للذاكرة أحداثا لا رابط بينها فيما يظن عقلنا الواعى أم هو الإحساس

بضرورة أن تستدعى قوات الجيش للنزول للشارع لم يطل الوقت حتى استدعى طبيب من العمارات المجاورة فوسط البلد بها أشهر العيادات ومع وصول الطبيب حل على التعب فجأة ورحت فى سبات عميق.

كان الوقت فجرا عندما أفقت على رائحة البن المحمص من تلك الغيبوبة التى طالت حسب كلام مصطفى الجعفري، الشاب الذى استضافنا فى مكتبه، قال لى ونحن نشرب القهوة إن السويس مولعة والأسكندرية مشلولة من المظاهرات والجيش نزل الشارع أما الصعيد. استوقفته لأسأله أين الشاب الذى كان معى انتظر لحظة أربكتنى ثم قال: اسمه إيه؟:. لا أدري، أحدث له مكروه ابتسم وقال: أكتر من كده الراجل كان عنده كسر مضاعف فى الركبة وتهتك فى الفخذ وكسر ضلعين فى الصدر بس اطمئن حيعيش.: ممكن أشوفه، لا. جم أهله وأخذوه لمستشفي. أنت أنقذت حياته. بعد ما أسعفناه حكى إزاى كان واعى للى بيحصل حوليه وزعيقك فى الناس والعركة اللى كنت حتدخلها، واحب أسمع الحكاية منك، على فكرة أبوه طلع لواء على المعاش وسايب لك الكرت بتاعه امانة فى زمتى عشان يشكر معروفك، أما أمه فباست إيديك وانت نايم. أشرب القهوة واحكيلي!.